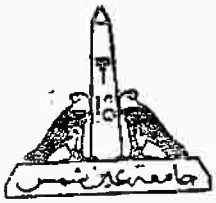

حولية كلية البنات

جامعة عين شمس

القسم الأدبى

العدد الثامن عشر

يناير ١٩٩٥

ولكن نغمة الحقد تستمر فى ثنايا حديثه ولنسمعه حين يقول : (٢)
عقب هذا النصر عاد المنصور الى قرطبة يتبعه عدد غفير من الأسرى المحطين بأبواب مدينة سنتياجو وأجراس كاتدرائيتها وقد استخدمت أبواب المدينة لمسجد قرطبة ، وأما الاجراس فقد علقت داخل المسجد كمشكاوات . ويختتم حديثه قائلا : " من كان يستطيع القول حينئذ أنه سيأتى يوم ، وعلى يد ملك مسيحى ، تعود فيه هذه الاشياء تحملها الاسرى من المسلمين ؟ "

ولكن هذا المؤرخ وغيره ممن تحاملوا على المنصر لم يضعوا فى الاعتبار السياسة التى كان يسير عليها كل الحكام المسلمين بالاندلس دون استثناء منذ بداية الفتح ، الا وهى سياسة " الجهاد " التى لم يشذ عنها المنصور بل تابعها فى حماس واخلاص ، وهؤلاء المؤرخون يعرفون تلك السياسة جيدا ويعبرون عنها فى مؤلفاتهم الافرنجية بنفس الكلمة العربية بحروف لغاتهم هكذا : AL-CHIHAD

ولهذا فقد حاولنا فى بحثنا هذا تقصى الحقيقة ومقارنة الاحداث مع مراعاة طبيعية وظروف العصر الذى وقعت فيه ، ومحاولة القاء أضواء أكثر على تلك الشخصية ، فى كل جانب من جوانبها حتى تتضح الصورة .

---

(٢) انظر ص ٤٣٩ وما بعدها .

حياة المنصور وعصره :

يبدأ ظهور المنصور بن أبي عامر في افق السياسة بالاندلس مع تولية هشام المؤيد بن الحكم المستنصر ، الخلافة وهو لا يزال طفلا في العاشرة من عمره ، وقد عينت أمه " صبح " وصية عليه بمساعدة الحاجب أبو الحسن جعفر بن عثمان المصحفي . والمنصور من اسرة عربية يمنية وكان جده في طليعة من دخلوا الاندلس مع طارق ابن زياد . وكان المنصور حسن النشأة وتبدو عليه دلائل الذكاء والفطنة والرياسة والطموح ، سلك سبيل القضاء في اول الامر سائرا على نهج أعمامه وأخواله فدرس الحديث وقرأ الادب واللغة على البغدادي وأبي بكر بن القوطية وغيرهما . كما كان ذو همة عالية ونفس طموحة متطلعة الى معالي الامور منذ نشأته الاولى ، وعلى وجه الخصوص منذ التحاقه بقصر الخليفة الحكم المستنصر (٢) .

وقد بدأ المنصور حياته العملية كاتبا عند باب قصر الخليفة الحكم المستنصر ، ثم تعرف بالسيدة " صبح " زوجة الخليفة وكتب عنها فاستحسنته ووصت به عند زوجها الذي ولاه قضاء بعض المواضع فبرهن المنصور على كفاءته التامة فترقى الى الزكاة والمواريث بأشبيلية ، كما ظلت علاقته بالسيدة صبح وعظمت منزلته عندها .

(٢) راجع : المراكشي : المعجب ص ٢٧١ وما بعدها .

بما كان يستميلها به من التحف والهدايا النادرة حتى لقد قيل انه صنع لها قصرا من فضة وحمله على رؤوس الرجال ، وعندما علم زوجها الحكم بذلك قال : ان هذا الفتى قد جلب عقول حرمنا بما يتحفهم به (٤) . وحاز المنصور رضاء الخليفة حتى أنه ولاه منصبا جديدا وهو أن يكون وكيلا لهشام ولى العهد كما عهد اليه بمهام خاصة اداها كلها بنجاح مما رفع قدره عند الخليفة ، فى الوقت الذى حاز فيه أيضا رضاء الشعب عامة بما اتصف به من كرم واخلاص فى أداء الواجب وحسن المعاملة .

بعد وفاة الخليفة الحكم المستنصر بويع لابنه ولى عهده هشام المؤيد بالخلافة ولعب المنصور فى ذلك دورا رئيسيا مما كان له أثر كبير فى اعلاء شأنه وبعد صيته فاختاره الخليفة الجديد وزيرا له كما جعله ساعدا لحاجبه جعفر المصحفى فى تدبير شئون دولته . ومنذ تلك اللحظة بدأ المنصور يعد العدة لتصفية جميع المناصر المنافسة له لانه تطلع الى العليا فقام أولا بالقضاء على الصقالبة واستعان فى ذلك بالحاجب جعفر بن عثمان المصحفى ثم قضى على جعفر بن عثمان هذا بمعاونة أبى تمام غالب الناصرى ، ثم قام بالقضاء على غالب الناصرى مستعينا بجعفر بن على ، واخيرا قضى على جعفر بن على فخلت بهذا

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٨٣ .

دولتـه من المنافسين لـه [٥] . والى جانب منصب الوزارة تولى المنصـور منصب الحجابـة بعد وفاة جعفر بن عثمان وبذلك تمكن من السيطـرة التامـة على الخليفة الصبى فحجر عليـه بحيث لم يره أحد الا فيما ندر ولكى يصرف الناس عن الخليفة قام ببناء قصر خاص نزل بـه وسماه قصـر الزاهـرة ونقل اليـه كل مظاهـر السلطة والسلطان وأشاع ان الخليفـة هشام قد فوض اليـه الامر للنظر فى أمر المسلمين وذلك لانه تفرغ لعبادة ربـه [٦] . وأخذ المنصور يستميل اليـه العامة والخاصة بما يبذل لهـم من المنح والعطايا وفى نفس الوقـت شدد الرقابـة على الخليفة الطفـل الذى عاش محجورا عليـه داخل أسوار قصره واستطاع المنصور ان يسيطـر وحـده على أداة الحكم ، وصار هو الخليفـة بالفعـل وان لم يتخـذ هذا اللقـب .

وقد يبدو المنصور فى هذا وكأنـه ينحو ناحيـة الدكتاتوريـة ولكن الواقع عكس ذلك فقد كان يرى الامور حولـه تسير فى غير صالح الدولة خاصـة وان جيرانها من الدول المسيحية قد استهانت بهذا الخليفة الطفـل واخذت تغير على أطراف الدولة الاسلاميـة فى الوقت الذى انصرف فيـه

---

(٥) راجع تفاصيل هذه الاحداث فى تاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ١٤٧ وابن عذارى البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٩٥ وما يليها ، ابن بسام : الذخيرة ص ٤٦ ، المقرى : نفح الطيب جـ ٤ ص ٨٩ .

(٦) انظر البيان المغرب جـ ٢ ص ٤١٠ وأيضا
AMIR ALI: A SHORT HISTORY OF THE SARACENS P.522.

رجالات الدولة الى شئونهم وتحقيق مصالحهم الخاصة الخاصة وعلى رأسهم الحاجب أبو الحسن جعفر بن عثمان ، مما دفع المنصور إلى الخروج على رأس الجيش الاسلامى مجاهدا ، كما دفعه أيضا الى التخلص من هذه الفئة التى تعرقل مشاريعه للنهوض بأمور الدولة المختلفة .

فهاهم القشتاليون يغيرون على قلعة رباح وتضطرب الامور ويستفيث أهل الثغور ويصل صراخهم قرطبة ولكن الحاجب جعفر بن عثمان لا يحرك ساكنا . ويهب المنصور على رأس الجيش بمساعدة أم الخليفة التى أمدته بالاموال فيهد القشتاليين على أعقابهم ، فى الوقت الذى لم يتحرك فيه جعفر خطوة واحدة بالرغم من كثرة الجنود ووفرة الاموال . ويتقدم المنصور ليثخن فى اراضى غاليسيا ويعود بعد اثنتين وخمسين يوما بالغنائم والسبى حيث يستقبل بما هو أهل له من الحفاوة والتكريم ويرتفع نجمه فى سماء الدولة (٧) . ومع كل هذا ، ورغم ان المنصور صار هو المتصرف فى كافة الامور الا انه اتخذ اسم الحاجب ولم يتخذ اسم الخليفة مع انه أصبح الحاكم الفعلى للبلاد دون منازع .

---

(٧) انظر : المقرى : نفح الطيب ، ص ٣٨٠ .

ومع ذلك فلم ينفرد المنصور بالامر فقد قام بتنظيم اداة الحكم واتخذ كثيرا من الوزراء وعهد اليهم بالاعمال المختلفة ومن اشهرهم أبو مروان ابن ادريس الجزيرى ، وأبو بكر بن الحسين الزبيدى وعبد الملك بن ادريس الخولانى ، وأبو مروان بن احمد بن شهيد ، ومن رجال دولته البارزين أيضا نذكر ابو العباس محمد بن ذكوان الذى ولاه المنصور منصب القضاء والكاتب الشهير عبد الله بن محمد بن مسلمة (٨) .

وقد اهتم المنصور بشئون دولته فى الداخل اهتماما كبيرا اذ سارع الى اخماد الثورات وتأديب كل من تسول له نفسه الخروج عليه أمثال حسن بن قنون ، وزيرى بن عطيه اللذين ثارا ضد سياسة المنصور فقضى عليهما قضاء تاما ، كذلك اتبع سياسة الحزم والشدة مع كل من سعى للتآمر عليه كما حدث مع الوزيرين المعروفين ابن حزم وابن رشد اذ تعرضا للعزل والاهانة والنفى (٩) .

واننا نرى ان المنصور كان محقا فى مواقفه تلك فقد كان أعداء الدولة يتربصون بها ، وكان لا بد من يد قوية حازمة لتحقيق وحدة الدولة وقوتها فى الداخل وللضرب على أيدى الطامعين من هؤلاء الاعداء فى الخارج ، وكان المنصور هو هذه اليد القوية الحازمة .

---

(٩) راجع ما ورد من تفاصيل هذه الحوادث فى تاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ١٤٧ ، نفح الطيب : جـ ١ ص ٣٨٢ ، البيان المغرب جـ ٢ ص ٤٢٠ .

وقد استمر حكم المنصور للاندلس سبعة وعشرين عاما كان فيها مثال الحاكم المتفانى فى خدمة شعبه وبلاده وكانت مقدرته العسكرية ومواهبه الفائقة فى التنظيمات والادارة قدوة لجنوده ، وبهذا اكتسبت الاندلس مجدا وازدهارا لم تعهده من قبل مما انعكست اروع نتائجه على شعب الاندلس .

كلمة ختام :

مما تقدم نرى أن تلك الشخصية قد لعبت دورا هاما فى تاريخ أسبانيا واستطاعت أن تثبت وجودها فى تلك الحقبة التى استمرت منذ سنة ٣٦٦ هـ حتى ٣٩٢ هـ فقد كان المنصور بن أبى عامر مثلا صادقا للاخلاص فى الحكم والحرص على مصلحة الرعية والتفانى فى خدمة الدولة وحفظ أمنها وسلامتها فى الداخل والخارج ، وانتشار العمران بهما وازدهار الثقافة والادب وتقدم الزراعة والصناعة وغيرها ... وكان المنصور مثلا أعلى فى الكرم والشجاعة والعدل والوفاء وانعكست آثار هذا كله على الشعب الاندلسى فانتعش وازدهرت ثروته وعم البلاد الأمن والرخاء .

كل هذا لا نستطيع أن ننكره ولا نستطيع ان نغفل تلك الجهود الكبرى التى بذلها المنصور من أجل صالح شعبه وأمته وان كان بعض المؤرخين يأخذ عليه تلك الاساليب التى اتبعها من قتل وتشريد لمنافسيه من أجل الوصول الى ما يريد وتحقيق مصلحته الشخصية مما جعل بعض المؤرخين وصفة خاصة الاسبان يضفون عليه صفة الدكتاتورية ويبالغون فى ذكر تلك الصفة حتى أنهم يلقبونه بدكتاتور الاندلس — ولكننا برغم هذا نقول ان هذه الاساليب كانت سمة العصر ، ولا ننسى أن العصور الوسطى بالذات ارتبطت الاحداث فيها ارتباطا كبيرا بشخصياتها البارزة — كما لا ننسى ان الحكام المسلمين من المصلحين كانت سياستهم تقوم أساسا على " الجهاد " وخاصة فى أسبانيا حيث كانت الدولة الاسلامية محاطة من الشمال والشرق بدويلات مسيحية ترمى اولا واخيرا الى القضاء على النفوذ الاسلامى فى شبه الجزيرة الايبيرية — وهذه حقيقة كان لا يمكن لأى حاكم فى اسبانيا الاسلامية أن يغفلها .

وعلى هذا فيمكننا ان نعتبر المنصور من أبرز الحكام وأشهرهم فى التاريخ الاسلامى للاندلس الذين تمسكوا بسياسة الجهاد وتقدموا بها فبلغت البلاد فى عهدهم قمة التقدم والازدهار نظرا لجهوده العظيمة التى قام بها لخير أمته ورفعة شأن بلاده .

دكتور
احمد ابراهيم الشمراوى